في الأدب الانجليزي :

ماثيـــو أرنولد

Mathew Arnold

للأستاذ خيري حماد

(تتمة)

ولكن إذا كان الناس ينظرون للشعر هذه النظرة العظيمة ، أليس من الخليق بهم أن ينهضوا به نهضة عظيمة ، ويعملوا من شأنه إعلاء لايجارى . أليس من الحرى أن يبوئوه مكانة بين العلوم الإنسانية حتى يمكنهم الحصول على مايتوخونه له من نتائج هامة ، فإن من أهم العوامل الضرورية فى الشعر التفريق بين الغث والسمين ، بين الجيد والسيء ، بين الجميل والقبيح . فالشعر هو المرآة الحقيقية التى تصور بواسطتها الحياة فى أحسن معانيها ، وأبهى حللها ، وهو المصلح الإجتماعى الأوحد الذى تتجاوز سلطته العقائد والقوانين ، وتتعدى عرف المجتمع .

إن أحسن الشعر فى رأى أرنولد ما أردنا إنشاءه ونظمه ؛ فهو الذى باستطاعته أن يسرنا وأن يخلق فينا الأفكار والظنون التى نريدها . ويجب علينا دائماً عند دراستنا للشعر من مختلف نواحيه أن نخلق فى أنفسنا روح الإعجاب بالحسن والإستنكاف للسيء أو الرديء . فإن أغراضنا وميولنا الشخصية لها قيمتها العظمى فى الحكم على الشعر وتقديره بالميزان الحقيق الذى لاغلط فيه ولا ميل . فكثيراً ما تقود الإنسان ميوله الشخصية إلى المبالغة فى الأحكام التى يصدرها . وهذا مما يقود إلى ارتكاب الأخطاء ، وتحمل المشاق فى إصدار الحكم الذى يريده .

يعتمد جمال الشعر على المقدرة التقليدية أو الإبتداعية عند الشاعر . ويختلف تقديرنا للشعر باختلاف جماله وابتداعه ، فإن كان من النوع العالى ، من النوع الخالد ، وجب علينا تقديره والثناء عليه ، وإن كان من النوع الرديء تحتم علينا أن نصب عليه جام غضبنا ، وأن نظهره للناس بمظهره الحقيق خاليا من الرونق والبهاء ، وتقدير الشعر واستحسانه مصحوبان بالتمييز بين الحسن والسيء هما الغايتان الوحيدتان لدراسة الشعر والإقبال عليه . وكل مايعوقنا عن نيل هذه الغاية فهو مضر وغير صالح .

وإذا كنا نرغب فى دراسة الشعر الحقيقى كما هو دون أيما مبالغة أو عز ، فما علينا إلا أن نظل مفتوحى الأعين بعيدين عن عالم الخرافة والكذب محاولين وزن القصيدة بقسطاس عادل ، فنحكم على الشعر حكما صادقا . ويتحتم علينا عند دراستنا للشعر أن ننظر إليه نظرة نقدية من الوجهة التاريخية فنطلع تمام الإطلاع على الحقائق التاريخية ونحاول ربطها بما جاء فى القصيدة أو الملحمة ، ويجب على الشاعر عند انتخابه لأشخاص قصدته أن يتوخى الرجال المشهورين فيضع فى كل ناحية من مناحى البطولة رجلها اللائق بها .

فأغنية رولند فى رأيه تختلف تمام الإختلاف فى معناها الشعرى ومغزاها العاطفى عن قصائد هوميروس . وعند ما ننقل بصرنا من هذه القصيدة إلى تلك نشعر كأننا قد انتقلنا من عالم إلى آخر مخالف له . وعلينا أن نزن كلمات الثناء والحمد وزنا فلا نضعها دون أى ثمن . وقد قال أرسطو قديما : « إن الشعر يمتاز من التاريخ التاريخ بميزات كثيرة أهمها الصدق والثبات اللذان لا يوجدان فى التاريخ كوجودهما فى الشعر . فإذا عبر الشاعر فى قصيدته عن فكرة ما كان فى شعره مثلا أعلى للصدق والنزاهة يحاول جهده أن يعرض على قرائه وسامعيه أفكاره الحقيقية النزيهة دون أى رياء ونفاق . فمن الواجب المحتم على الشاعر إذن أن ينتقى مواضيعه له سداها الصدق ولحمتها الثبات .

ويختلف شعر شوسر الشاعر الإنكليزى المعروف عن شعر سابقيه من ناظمى الملاحم والقصائد الطويلة فى شيئين هامين : أولهما المادة ، وثانيهما الأسلوب . فنشعر عند انتقالنا من قراءة شعر أسلافه إلى قراءة شعره أننا انتقلنا من عالم مادى إلى آخر ملؤه الخيال والإبتداع . وامتيازه فى مادة الشعر يتناول نظرته الواسعة نحو الحياة البشرية بما فيها من بساطة ودعة ، جلاء ولطف ، فله المقدرة الشعرية على اختراق حجب الحياة والتطلع بعين المستطلع نحو صور الحياة الحقيقية . وأما أسلوبه فيختلف عن أسلوب سابقيه اختلافا واضحاً بينا ، فهو أول من وضع للشعر الإنكليزى صورته الحقيقية التى نشاهدها فى عصرنا هذا . وقد

أثنى عليه النقاد فى مختلف عصور اللغة الإنكليزية ، فمدحه جونسون ، وأطراه درايدن .

وفى شعر شوسر نرى عذوبة وسلاسة لا نشاهدها فى شعر غيره من أسلافه ومعاصريه ، فقد كانت له المقدرة اللغوية التامة للتحكم بألفاظ اللغة ووضعها فى أوضاعها الحقيقية دون أى تكلف ، ومع كل هذه الميزات فإن شوسر لا يعد من كبار الشعراء المقلدين . فقد كانت تعوزه القدرة على ضبط الوزن والموسيقى الشعرية التى نجدها كثيراً فى شعر الشاعر الخالد دانتى الإيطالى ، لكن يمكننا أن نجزم أن هذه الموسيقى لم يستطع أحد من الشعراء الإنكليز حتى عصر وليم شكسبير أن يأتى بمثلها أو يقلدها .

واعتقد أرنولد أن عصر درايدن وما تلاه من العصور كان عصر تأليف وابتداع وترقية للشعر عما سلفه من العصور . وكان درايدن يظن أن أسلافه لم يفهموا الشعر الإنكليزى حق فهمه . كولى نفسه لم يؤمن بشاعرية شوسر ونبوغه . وعند ما أراد وزيف أديسن أن يمتدح شعر درايدن اتخذ من قصائده مثلا أعلى للمقابلة والمقارنة . وكان الاعتقاد السائد طوال القرن الثامن عشر أن درايدن وجونسون وبوب وأديسن هم فحول الشعر الذين لم يأت لهم سابق ولا لاحق .

وهنا يسائل أرنولد نفسه : أنعتبر درايدن وبوب شعراء مقلدين؟ هل التقدير التاريخى فى معظم الكتب الأدبية لهذين الشاعرين هو صحيح؟ فقد أنكر وردزورث وكولريدج على هذين الشاعرين عبقريتهما الشعرية . ولكن القرائن والدلائل تشير بأنه سيأتى يوم عما قريب ، ترجع فيه سطوة القرن الثامن عشر الشعرية ، ويرجع الناس إلى تقدير شعرائه وكتابه .

وينتقل أرنولد بعد هذا البحث الطويل فى الشعر إلى تطور الشعر وأثره فى الأدب الانكليزى . وفى هذا الكتاب تتجلى لنا عبقرية أرنولد فى النقد ، وكيف ينقد بأسلوبه اللاذع الكتاب والشعراء من أسلافه ومعاصريه .

ولأرنولد كتب أخرى أهمها كتاب : « الثقافة والفوضى » وكتاب : « القديس بولس والبروتستنية » . وكتاب : « الأدب والعقائد » وكتاب : « الله والتوراة » وغيرها من الكتب الكثيرة .

خاتمة :

مما تقدم فى بحثنا عن حياة ماتيو أرنولد وفنه ، يمكننا أن نتأكد من أن حياته كانت مثمرة مفيدة . فقد كتب قبل وفاته أكثر من عشرين كتاباً اعتبر البعض منها من أحسن ما كتب فى اللغة الإنكليزية .

ويجدر بنا قبل أن نختم مقالنا أن نضيف بعض الحقائق التى لا غنى لنا عنها . لقد هجر أرنولد الشعر وسنه لم تتجاوز الأربعين حيث اعتقد أن الشعب الإنكليزى لا يفهم الفن والشعر مطلقا ، وإنما يهتم بالأمور المادية فحسب ، وهذا ما حمل أرنولد على أن يهاجم مجتمعه هجمات شديدة فى كتابه الأول الذى أصدره فى عالم النثر . ومن هذه السنة إلى يوم وفاته يندر أن نجد له قصيدة مشهورة ، فقد وجه معظم انتباهه إلى النقد والنثر والسياسة .

كان أرنولد من أنصار المدرسة الكلاسيكية التقليدية فى أفكاره ، ولذا نراه يحاول أن يعيد لهذا العصر بهاءه ورونقه بعد أن طغت عليه صروف الزمان وظهرت تلك الثورة الأدبية المخيفة التى بدأ بها الشاعران وليم وردزورث وكولردج سنة ١٧٩٨ ، عندما أخرجا إلى العالم كتابهما الخالد : « القصائد الغنائية » ، فقضت على الأدب الكلاسيكى قضاء مبرما . ولكن أرنولد بدوره رغب فى الرجوع إلى المواضيع الكلاسيكية القديمة ، فنظم بها عيون قصائده كقصة تريسترام وامبدوكليس وميروب ، وكان ينكر على الرومانتيكيين فرديتهم ومحاولتهم إشباع رغبتهم فحسب ، بينما فى الحقيقة على الشعب أن يهتم بالآداب العالية فى جميع اللغات ، ولا يقتصر بحثهم على الآداب الإنكليزية فقط .

وقد حمل حملة شعواء على المتطهرين لإعتقاده أن هذه الفكرة أو هذا المذهب يحصران الدماغ فى محيط لا يتجاوزه ولا يتعداه ، وهذا مما يضيق نطاق الأدب ، ويهدم ذلك الصرح الذى بناه الأدباء من سالف العصور .

وعلى الإجمال فإن أرنولد يعد من خير حملة الأدب فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وشهرته آخذة بالازدياد شيئا فشيئا ، فلا غرو أن رأيناه بعد مدة ليست بالطويلة يتبوأ محله اللائق به فى عالم الفن والنقد والأدب .

مبرى حماد